شكري القوتلي

كتبت في مذكراتي "أحاديث نزهة صباحية" التي كنت أسجلها في حينها الكثير عن المؤامرات التي استهدفت سوريا، وصراعات الجيش فيها منذ بدء الهجمة الإمبريالية الأمريكية عليها، وهي دقيقة صادقة، ولقد قرأها عفيف، ووافق على كل ما جاء فيها الاّ أنه أشار بأن المواقف لا تدرك تماما الاّ بالمرحلة التاريخية التي تحيط بها، فلما كتب هو "سوريا، جزيرة الحرية الخضراء" وجدت أن ما سجلته يكمل الصورة عن الأحداث التي سبقت الوحدة بين مصر وسوريا بأمانة تامة.. وها أنا أنقل بعض هذه الأحاديث عنه. يقول عن القوتلي:

–القوتلي كان يعيش في الأوهام، والأميركان كانوا يخافون الجو الديموقراطي الذي يلازم حكمه. الحقيقة أن الأميركان لم يكونوا يثقون الاّ بضباط الجيش لفرض هيمنتهم، فليس هناك من فئة أكثر فجورا من كثير من عسكريي العالم الثالث. عرفت الولايات المتحدة كيف تتغلغل بين صفوفهم وتحرفهم. حسني الزعيم كان يقول" ليعطوني خمسمائة دولار وأنا أوقع على تسليم فلسطين!" لم يبق في الحكم ثلاثة أشهر. كان في سوريا شعب يحاسب، وهذا الشعب نزل بكل ثقله الى الشارع لطرد الشيشكلي أيضا فاضطر الى الهرب!

- كيف حدث هذا؟
- حدث العصيان في الشمال. بدأت أولا حركة رجعية في جبل الدروز، ثم تحرك الجيش. عندما شعر الشعب بأن الأمور مالت في غير صالح الدكتاتور، خرج نصف مليون انسان الى الشارع مسلحين. في دمشق وحدها فرغت رئاسة الأركان من الضباط والرقباء والجنود، فلم يجد الشيشكلي جنديا واحدا يمضي على ورقة. أفلت منه الزمام، اجتمع بالوزراء فقالوا له "نحن من أبناء هذا البلد ولا نريد أن نغادرها، جد حلا بدون إهراق دماء. كان الحل أن عليه أن "يفركها".

عندما اكتشفت المؤامرة الأميركية الثالثة على سوريا باشتراك الشيشكلي وبعض الضباط الشوام، كان الجيش في غليان.. ذهبت الى رئيس الأركان وقلت

له "يجب أن يسرّح هؤلاء الضباط من الجيش!" قال رئيس الأركان: "انني أستقيل" أجبته: "نحن آسفون لذلك، ولكن اذا أصررت على الإستقالة فليس لدينا من مانع!"

القوتلي كان من عادته أن يتمارض في العهد الديموقراطي يريد أن يعقد الأمور. قال لي صبري العسلي عن لسانه: "القوتلي يستقيل اذا أصررتم على تسريح الضباط." أجبته: "الرسول مات، وعاشت بعده أمة الإسلام!".. كنت أعلم أنه لن يستقيل وهو يهدد كي نتراجع، لأنه من غير المعقول أن يستقيل فيقول الشعب أنه مشترك في المؤامرة!..

* * *

عدنان المالكي

يقول لي عن عدنان المالكي:

-كنت قد رجعت حديثا من فرنسا عام 1954، وكنت أقوم بتأسيس المصلحة الجغرافية عندما قام الإنقلاب على الشيشكلي. أذكر أنني كنت عند رئيس الأركان شوكت شقير قلت له: "يجب أن نطلق سراح الضباط الذين سجنهم الشيشكلي، عدنان المالكي ورفاقه في المزة" [أما أخي صلاح فكان مسجونا في سجن الشيخ حسن]..

كان في الغرفة رياض الكيلاني رئيس الشعبة الثالثة، فطلب من رئيس الأركان أن يتريث خوفا من انقلاب مضاد.. صحت به: "مم تخاف؟ ذهب الشيشكلي الى غير رجعة". ثم طلبت من رئيس الأركان أن يعطيني أمرا بإطلاق سراحهم وقلت له بأنني سأنقلهم بسيارتي.. فتلفن شقير الى سجن المزة ينبئهم بقرب حضوري.. أفرج عنهم وكانوا خمسة.. وفي طريق العودة كنت أقود السيارة في شارع ميسلون عندما سمعت إطلاق النار صادرا عن رئاسة الأركان، فتبرّع أحد الضباط للذهاب والإستطلاع وعاد وقد أصيب بجرح في ساقه، وقال بأن هناك انقلابا مضادا يقوده حسين حدة وشحادة عبد الحق، فذهبت بالضباط الى بيتنا في الجسر الأبيض حيث قمنا بمعاجة الضابط الجريح.. وفكرت بأن الإنقلاب اذا نجح، فانهم أول ما يقومون به أن يفتشوا بيتنا ويلقون القبض على الضباط

ثانية، فذهبت بهم الى منزل صديق لي محام غير حزبي، ولكنه لم يفتح الباب خوفا على نفسه من المشاكل، وادّعى فيما بعد أنه لم يسمع رنين الجرس، فغامرت وخبأتهم في بيت صديق آخر من عائلة الأتاسي.. كان شابا تقدميا أعزب وبيته ملحق على سطوح أحد الأبنية.. أما والده فكان وزيرا عند الشيشكلي.. اعتمدت في هذا التصرف على ثقتي الشخصية به، وكان أهلا للثقة، فكان بيته أفضل مخبأ بعيد عن الشبهات اذ لا يمكن أن يخطر في بال أحد، ثم انتقلنا من هناك الى حمص..

توثقت علاقتي بعدنان كثيرا بعد هذا، وبعد عام كنت في القضاء العسكري لمحاكمة قتلته، ولأعلق في شبكة المؤامرات الأميركية المتلاحقة على سوريا، والتي لم تنته حتى قيام الوحدة.. وهذه القصص تعرفينها جيدا لأنك عشتيها معي..

* * *

عبد الكريم قاسم

في المفرق اتصلت بالزعيم عبد الكريم قاسم الذي كان قادما مع لواء عراقي تمركز بجوارنا في المفرق، وقامت بيني وبينه صداقة متينة.. كان يحدثني عن أحوال العراق ويقول: "انني شهريا أقبض مائتي دينار كراتب في الوقت الذي يوجد في العراق انسان بائس محروم من كل شيء.. هناك عمال زراعة الأرز تهترئ لحوم أقدامهم، وتضطر زوجاتهم للسهر في الليل بجانبهم، لتحميهم من الجرذان التي تتربص لالتهام أقدامهم".. وكان عبد الكريم قاسم يعلّق على هذه الصورة قائلا: "كيف أستطيع أن أبلع لقمة الخبز وفي بلادي انسان كهذا يعيش هناك؟

وقال لي مرّة بأنه يدبّر خطة لاقتلاع العائلة المالكة من جذورها، وعدم السماح لها بالهرب من العراق كما فعلت في عام 41 لتعود وتقضي على ثورة رشيد عالي الكيلاني.. فقلت له: "نحن في الجيش السوري مستعدّون أن ندعمه بكل امكاناتنا عندما يقرر تنفيذ مخططه والقيام بالثورة. واذا قدر لها أن تفشل فاننا مستعدون أن نضم كل من اشترك بالثورة للجيش السوري.. كنت أنا قائد الجيش الحقيقي وممثلا للضباط الأحرار في سوريا. وهيأت اجتماعا في خيمة نصبت في

المفرق، وطلبت حضور رئيس الأركان السوري اللواء نظام الدين وضباطه رؤساء الشعب. وكان يمثل العراق الزعيم عبد الكريم قاسم، ومعاونه عبد السلام عارف. وفي هذا الإجتماع جرى الإتفاق على دعم حركة عبد الكريم قاسم المقبلة من قبل الجيش السوري. لم أكن أرتاح الى عبد السلام عارف، لتفاهة أحاديثه، وتقلب آرائه، وضحالة أفكاره، وإصراره الدائم على شتم عبد الناصر وعبد الحكيم عامر، وما كنت أدري بأنه كان يمثل.. مرّة قلت لقاسم بأنني لا أرتاح لهذا الشخص فطمأنني قائلا بالحرف الواحد: "ما يخالف، هدا تلميذي، وأنا أعتبره مثل ولدي"..

ان اصراري على وضع الجيش في اربد هو الذي أفشل الإنقلاب المزمع على سوريا والذي كشفته محاكمة العجلاني.. كان أبو نوار يريد أن يستدرجني الى القدس لتبتعد الشقة ما بيني وبين سوريا (2000 كم) وأنا كنت أتصرف حسب ما يمليه علي أمن وحماية الأردن وسوريا. فلما قيل لي أنه لا يوجد في إربد الاّ سرية واحدة وجدت من وجهة نظر عسكرية أن اسرائيل قادرة على تطويق الجبهة الأردنية والسورية. وكان قراري هذا بعد أن جاءت برقية عامر بأن لا نتدخل عسكريا لأن المعركة انتهت، ونزل الفرنسيون والإنجليز في بور سعيد وأصبح الحل سياسيا..

كنت في القيادة في عمان عندما أصدرت الأمر للجيش أن يتوقف في مكانه حتى تأتيه أوامر أخرى. وتلفنوا للملك حسين فجن جنونه، ودخل ولم يسلّم. طلب من سوريا سحبي قائلا بأنني لا أصغي للأوامر وأتحدث بالستراتيجية. كان ضالعا في المؤامرة على سورية كما كشفت محاكمة العجلاني ذلك.. وكان مخططها قيام الثورة في جبل الدروز وحلب وحمص، فظن أنني على علم بها، وخصوصا حين لم يصغ الرئيس القوتلي اليه..

–ما هو موقف القوتلي حينذاك؟

–في مؤامرة العجلاني بدت الأحكام الصادرة في حق المتآمرين قاسية بالنسبة لشكري القوتلي الذي كان في القاهرة حينذاك، وكان يخشى القدوم الى دمشق خوف أن يجبره العسكريون على تنفيذ الأحكام..

أرسل الي القاضي جلال عقيل (زوج ابنة عمي الصغرى) يستطلع رأيي في تنفيذ الأحكام فقلت له: "ان مهمتنا تنتهي على قوس المحكمة.. انها إهانة لنا أن نتهم بالجمع بين السلطة القضائية والسلطة التنفيذية، فهل تظن أننا سنمسك بالمتآمرين وننفذ فيهم حكم الإعدام في المرجة؟ هناك رئيس دولة، وحكم ديموقراطي هو مسؤول بآخر المطاف في هذه القضايا التي تستهدف أمن البلاد.. فإذا شاء أن يخفف الأحكام لاعتبارات داخلية أو خارجية هو أدرى بها، فان له مطلق الصلاحية ولا نعترض أبدا على حكمه، فان مهمتنا تنتهي بانتهاء المحاكمة..

عاد شكري القوتلي الى دمشق على الفور وعدّل كثيرا من الأحكام التي صدرت بحق المتآمرين، ولم يعدم أحدا.. كان عبد الناصر يحرّضه علينا، يريدنا أن نتورّط في سوريا كما تورط في مصر بجماعة الإخوان، وكان منهم، ويعرف كل أسرارهم، فلما انقلب عليهم لفّق لهم تهمة اغتياله وأدانهم، وعلّق مشانق قادتهم، ودمّر جماعتهم تدميرا!..

* * *